رحماء بينهم

أفعال الرجال مرآة لما في قلوبهم

بدر محمد باقر

فهم هذه النقطة يمكن أن يزيل كثيرا من الاحتدام الحاصل بيننا كمسلمين، وسنبدأ بمثال من الواقع يهدف إلى تبسيط ما يليه، فأعمل معي فكرك كي نصل إلى مبتغانا.

تخيل معي أن رجلا قد جاء إلى بيتك يزورك للمرة الأولى وكانت هذه الزيارة هي لقاؤك الأول به، وبعد أن قضى معك وقتا يسمح له بأخذ الانطباع المناسب عنك وعن صفاتك وخلقك، انتهى هذا اللقاء، وخرج هذا الشخص من عندك، وبعد هذا اللقاء بأيام بلغك عن هذا الرجل خبران:

الأول: ينص على أن هذا الرجل قد أبغضك ولم يتقبلك، بل قد رأى أنك رجل فظ سيء الخلق والطباع، بل وربما طعن في دينك.

الثاني: ينص على أن هذا الرجل قد أعجب بدماثة خلقك وطيب نفسك وحسن ضيافتك والتزامك بدينك.

فقطعا هناك خطأ في أحد الخبرين فكيف يمكنك أن تعرف مكمن الخلل؟ هناك طريقتان لا ثالث لهما [1]:

الأولى: أن تكون على معرفة بمن نقل إليك كلا الخبرين، فمن عرف فيهما بالوثاقة والصدق كان خبره هو الصحيح والآخر باطلا.

الثانية: أن تنظر في فعل هذا الرجل، فتعرف أي الخبرين أصدق، ففعله وتعامله معك هو المرجح لصدق أحد الخبرين، فلو رأيت أن الرجل انقطع عنك ويتهرب حين يراك ولا يتصل بك ولا يرد على اتصالاتك فهذا يدل على صدق الخبر الأول، ولو رأيت

---

[1] وهذا باستبعاد إمكانية السؤال المباشر، إذ هي قد تكون متعذرة أو عديمة الجدوى في حال كان الرجل منافقا مثلا.

هذا الرجل يكرر الزيارة لك ويكثر الاتصال بك ويدعوك لزيارته، ويفرح لدى رؤيتك فهذا يدل على صدق الخبر الثاني.

إلا في حال كان هذا الرجل خبيثا منافقا يظهر خلاف ما يبطن، فهو يذمك حال فراقه لك، ويظهر المودة حين لقائك.

ولو عرفنا أن هذا الرجل مشهود له بالالتزام والصدق والشجاعة من خير الناس، ولا يمكن أن يتخذ النفاق خلقا ووسيلة ليتقرب إليك عرفنا أن الخلل كان فيمن نقل لك الخبر فيكون هذا الناقل كاذبا يسعى للتفريق بينكما لحسد في نفسه أو ما شابهه.

ألست معي في ذلك؟

وبالتأكيد لن نجد مخالفا لنا، لأن ما سردناه هو مثال بسيط بعيد عن تعقيدات النفوس وما تشربته من أفكار وما يسيرها من هوى.

لماذا لا نعيد تطبيق المثال السابق بعد أن نضيف أسماء لشخصيات حقيقية ونعيد التفكير في حقيقة ما أشيع عن البغض والكراهية بينها.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لا يختلف فيه اثنان فهو صهر النبي صلى الله عليه وسلم وابن عمه، وليث الإسلام وفارس الحروب، من أصدق الناس لهجة ومن أسلمهم منهجا.

إذا نظرنا إلى علاقة علي رضي الله عنه بباقي الصحابة رضوان الله تعالى عنهم سنجد كتب التاريخ أوردت لنا أخبارا كثيرة نصها أن عليا رضي الله عنه وأرضاه وباقي الصحابة كانوا بمثابة الروحين في جسد، ولم يكن بينهم إلا المودة والرحمة، وسنجد في كتب أخرى خلاف هذا حيث صورت لنا عليا مبغضا لصحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وصورتهم بأنهم يكرهونه ويريدون فراقه بل وربما قتله.

إذن وحسب المثال السابق ما السبل لمعرفة أي الخبرين أصدق؟

كما سبق وأسلفنا ليس أمامنا إلا طريقان لا ثالث لهما:

الأول: أن ننظر في نقلة هذه الأخبار إلينا فنعرف أيهم عرف بالصدق والوثاقة فيكون خبره هو الصحيح والخبر الآخر باطلا، وهذا الطريق لا يقدر على السير فيه إلا

العلماء وطلبة العلم، وذلك لأن النظر إلى رواة هذه الأخبار ومعرفة أحوالهم، يحتاج علما ومعرفة بكتب الرجال وكيفية الحكم على الرواة، والنظر في أقوال أهل العلم والترجيح بينها والتيقن من ثبوتها عنهم وتفاصيل كثيرة لا يقدر عامة الناس على التفرغ لتحصيلها.

الثاني: وهذا الطريق يشترك فيه العلماء وغيرهم، وهو النظر إلى فعل علي رضي الله عنه [1]، ومن خلال فعل هذا الصادق الشجاع يمكننا أن نرجح صحة أحد الخبرين، وسنحصر هذه النظرة بأفضل صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وهم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم فنعرف علاقة علي بهم كي نحدد أي الخبرين نقبل ونسأل الله تعالى الإنصاف:

❖ علي رضي الله عنه قد بايع الخلفاء الراشدين الذين سبقوه رضي الله عنهم، ولو سلمنا جدلا بقول من يشاغب ويحاول أن يلبس على الناس بأن عليا تأخر عن بيعة أبي بكر الصديق، فنقول هل بايع أم لم يبايع؟ العبرة بنهاية الأمر والأمور بخواتيمها، فهو قد بايع وسار مع الناس في ركب الصديق رضي الله عنه، ولو كان في هذا الأمر مخالفة لأمر الله ورسوله لما قبل به علي رضي الله عنه مهما طال به الزمن، ولو افترضنا أنه قد تأخر عن بيعة أبي بكر وأن هذا يعد دليلا على عدم رضاه عن بيعة الصديق، فنقول وماذا عن بيعة الفاروق عمر؟ وماذا عن بيعة ذي النورين؟ لا يختلف المسلمون أن عليا بايعهما ولم يتأخر عن هذه البيعة فهل يعتبر المشغبون هذا دليلا على رضاه عن بيعتهما أم يحاولون أن يوجدوا لهاتين البيعتين أعذارا فيخرجوا من مأزق قبول ورضى علي ببيعة الخلفاء رضي الله عنهم أجمعين، وأذكر أن أحد الإخوة ناقش رجلا يعترض على خلافة الصديق رضي الله عنه ويعتبر البيعة له غير شرعية إلا أن هذا الرجل لم يستطع أن ينفي مبايعة علي للصديق رضي الله عنهما وأقربها، ولكنه

---

[1] قد يستشكل علينا شخص ويقول: حتى النظر في أفعال علي رضي الله عنه يحتاج إلى علماء ليتأكدوا من صحة نسبة هذا الفعل له، وهذا يرد عليه بأن الأفعال التي ندعو إلى النظر فيها قد اتفق عليها المسلمون بجميع طوائفهم ومشاربهم، كمبايعته للخلفاء أو وزارته لهم ومعاونتهم في القضاء والمشورة، أو مصاهرته لهم، ولا يستطيع أحد جحدها، فكلها ثابتة ولا يمكن ردها فبالتالي يمكن لكل إنسان أن يُعمل عقله وينظر في دلالتها مع الاطمئنان التام لصحتها.

تمسك بأنها كانت بعد ستة أشهر من تولي الصديق رضي الله عنه للخلافة، فقال له أخونا: إذا علي رضي الله عنه قبل بها بعد ستة أشهر [١] وأنت لا زلت رافضا لها بعد ألف وأربع مائة عام؟ اقتد بعلي رضي الله عنه وارفضها ستة أشهر ثم تعال إلينا وادخل معنا في الرضى ببيعة الخلفاء ولتجتمع صفوفنا كما اجتمعوا رضي الله عنهم وكفاك إثارة للضغائن والفتن بسبب أمر جرى قبل أربعة عشر قرنا، بل أمر لم يحدث إلا في مخيلتك ولا أثر لخيالك على أرض الواقع.

❖ لم يكتف علي رضي الله عنه ببيعة الخلفاء الراشدين، بل قد صار وزيرا ومستشارا ناصحا وموجها لهم، بل ومحاميا ومدافعا وجنديا في حربهم لأعدائهم، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ولو كان علي قد بايع الخلفاء الراشدين دفعا للفتنة ولكي لا يحصل اقتتال بين المسلمين كما زعم البعض، لاكتفى بهذه البيعة ولاعتزل المشاركة في هذا الحكم، وقد رأينا ذلك من بعض الصحابة عندما اشتعلت نيران الفتنة بين المسلمين بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، فقد اعتزل أغلب الصحابة هذه الفتنة ولم يشاركوا فيها بل لم يشارك فيها إلا عدد قليل منهم كما قال محمد بن سيرين رحمه الله: "هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف فما خف فيها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين" [٢]، وهذا فعل الصادق الشجاع الأبي فهو لا يداهن ولا يحابي ولا يُكره على فعل ما يخالف اعتقاده.

❖ لم تقتصر مشاركة علي رضي الله عنه للخلفاء الراشدين الذين سبقوه على ميادين الحكم والحرب، بل تعدى ذلك إلى ميدان الأسرة، فقد صاهر علي عمر وزوجه ابنته أم كلثوم، وتزوج هو أسماء بنت عميس أرملة الصديق بل وربى ابنه محمدا، ولو كان بين علي والصديق عداوة لما قبل أهل الصديق أن يكون محمد بن أبي بكر في رعاية علي، ولما أمنوه عليه ولما قبل علي رضي الله عنه بأن يأوي في بيته

---

[١] وهذا الكلام من أخينا على سبيل التنزل، فهو لم يناقشه في صحة دعواه، وإنما سلم له بها ليظهر له ضعف موقفه وقلة حيلته، وإلا فقد ثبت أن عليا قد بايع الصديق مع سائر إخوانه من الصحابة ولم يتأخر عن البيعة.

[٢] العلل ومعرفة الرجال (٣ / ١٨٢)، "وهذا الإسناد من أصح إسناد على وجه الأرض ومحمد بن سيرين من أورع الناس في منطقه ومراسيله من أصح المراسيل" منهاج السنة النبوية (٦ / ٢٣٧).

ابن عدوه، وهكذا استمرت المصاهرات في أبناء علي وأحفاده، ولا يمكن لأي إنسان إنكارها أو إخفاءها.

وكذلك الخلفاء الراشدون الثلاثة رضي الله عنهم كانوا يبادلون عليا رضي الله عنه المودة والحب، بل ويثقون به ثقة لا حدود لها، ونمثل على ذلك بما فيه أبلغ الدلالة على ما نقول:

❖ عمر رضي الله عنه ولى عليا رضي الله عنه على المدينة أكثر من مرة في سفراته المتعددة إبان خلافته، تخيل ذلك: الصحابة متوافرون رضي الله عنهم، وعمر ينتقي عليا من بينهم واليا على المدينة أكثر من مرة [1] ومنها مرة كانت في سفر عمر الشهير إلى القدس ليتسلم مفاتيحها [2]، فكيف يأمن عمر عليا على عاصمة الخلافة في غيابه إن كان بينهما عداء وبغض؟ فلماذا لا يقوم علي بانقلاب على عمر وقد أصبحت المدينة الآن تحت يده بكل ما فيها من عدة وعتاد؟ ثم ماذا لو قتل الخليفة في سفره إلى من ستؤول الأمور؟ طبعا ستؤول إلى واليه على المدينة، على الأقل حتى يتشاور المسلمون وينظروا في أمر الخلافة فسيبقى هو مسيرا متحكما في الأمر من بعد عمر، فما الذي يجبر عمر على هذا؟ إلا الحب والود والثقة المتبادلة بينهما رضي الله عنهما.

❖ وتأمل معي أيضا الموقف التالي: عمر رضي الله عنه على فراش الموت بعد أن طعنه الغادر أبو لؤلؤة المجوسي، يفكر في أمر المسلمين وفيمن يتصدى لكرسي الخلافة من بعده، فماذا فعل؟ اختار ستة من الصحابة ومنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ووصفهم بأنهم ممن توفي الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، فهل يعقل أن يكون بين عمر وعلي خلاف وبغض بعد هذا؟

---

[1] قد أحصيت أنا أربع سفرات خلف فيهن عمر عليا رضي الله عنهما على المدينة، وقد تتبع الشيخ صفوت حجازي حفظه الله هذه السفرات فوجد أن عمر رضي الله عنه قد سافر أحد عشرة سفرة وجعل عليا رضي الله عنه خليفته على المدينة سبع مرات، خمس منها أسانيدها لا تقبل الشك، فتأمل وقد ذكر الشيخ ذلك في أثناء مشاركته في مؤتمر السابقون الأولون الذي أقيم في دولة الكويت.

[2] وقد ذُكر أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم هو من كان على مقدمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تلك الرحلة فما أعظم قدر آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لدى الفاروق. انظر البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٦٥).

❖ وأخيرا علي رضي الله عنه يدافع ويحامي عن عثمان رضي الله عنه ويبقي فلذات كبده وأشرف أهل الأرض في زمنهم نسبا، حفيدي النبي صلى الله عليه وسلم حسنا وحسينا رضي الله عنهما حرسا وحماة لعثمان رضي الله عنه ويبادله عثمان رضي الله عنه هذا الحب بأن يعزم على الحسن والحسين رضي الله عنهما بالرجوع وتركه خوفا عليهما وحبا لهما ولأبيهما رضي الله عنهم أجمعين.

بعد ما سبق لا يبقى شك لدى عاقل أن عليا رضي الله عنه يحب صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وخاصة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه، ولا يبقى لدى من يشغب إلا عذر واحد يتعلق به وهو أوهن من خيوط العنكبوت، وهو يمثل الغاية في الطعن والتنقص من علي رضي الله عنه، والعذر هو أن عليا أظهر خلاف ما يبطن وأنه كان يسر أمر كراهيته للشيخين ويتحدث بهذا لخاصته، ويظهر حبه ورضاه عنهما أمام الملأ. وأذكر أنه دار حوار بيني وبين أحد الأحبة بهذا الخصوص.

وكان الحوار يتناول فعل علي رضي الله عنه في زمن الخلفاء، وبعد أن احتججت عليه بما سبق وغيره من الأدلة على حب علي للصحابة رضي الله عنهم، تعلق بآخر أمل لديه، وهو دعوى أن عليا كان يتقي الصحابة، ويدفع بأسهم بالتظاهر برضاه عنهم وحبهم وودهم، فقلت له: علي رضي الله عنه عندي من أشجع الشجعان وأنه لا يقبل بالذل والهوان ولن يقر باطلا، ولن يكتم حقا، وعندك هو مداهن يظهر خلاف ما يبطن ويقر الباطل ويكتم الحق، فمن منا يمدح عليا ومن منا يذمه؟ ومن المحب له ومن المبغض؟

فقال لي بعد تفكير طويل: أنت من تحبه وأنت المادح له لست أنا.

فقلت: ومن منا المتبع لعلي رضي الله عنه والمقتدي به؟ أنا الذي أقر بخلافة الخلفاء وأرضى بها كما فعل علي رضي الله عنه، أم أنت الذي ترفضها؟

فقال: ولكنه أقر بها ظاهرا ورفضها باطنا.

قلت: ونحن مأمورون باتباع ظاهر المرء لا باطنه والسرائر أمرها إلى الله، فمن منا يتبع ظاهر علي رضي الله عنه؟

قال: أنت.

فقلت: يتبقى لك التعلق بباطن علي رضي الله عنه، فأقول كيف علمت ما في باطن علي؟

فأجاب: نُقل في بعض الكتب أن عليا رضي الله عنه كان يتظاهر بحب الصحابة رضي الله عنهم، وأنه كان يسر إلى خواصه ببغضهم وقد صحح هذا بعض العلماء. فقلت: وماذا عن خواص علي هل كان ظاهرهم بغض الصحابة أم حبهم؟ فقال: بل حبهم، فمنهم من كان واليا للخلفاء الثلاثة، فسلمان الفارسي رضي الله عنهم مثلا كان واليا لعمر على المدائن.

ومن الأصدق عندك علي وخواصه أم من وصفتهم بالعلماء؟

فقال: علي طبعا.

فقلت: وأنا أقول ذلك وأصدق عليا رضي الله عنه وأحبه وأعتقد شجاعته ونبله ولذلك أحب من أحبهم وأرضى بمن رضيهم كخلفاء فعاونهم وآزرهم، ولو كانوا على غير الحق فسأتعلق برقبته يوم القيامة وأقول له أنت من خدعتني بمداهنتك لهم – وحاشاه – ولو لم تداهنهم لما أحببتهم أنا، أما أنت يا مسكين فبرقبة من ستتعلق؟

فسكت قليلا ثم قال: برقبة من أفتى لي بأن عليا لا يحب صحابة النبي صلى الله عليه وسلم.

قلت: فمن أسلم موقفا وأحق بالأمن منا؟

قال: أنت.

وانتهى الحوار بيننا على هذا، ثم علمت بعدها بأنه قرر مثلي أن يتبع عليا رضي الله عنه ويدافع عنه وينفي عنه المداهنة والنفاق ولله الحمد والمنة.

وأختم هذه النقطة بوصف الله تعالى للمهاجرين والأنصار: {وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم} (الأنفال: ٦٣).

فأثبت سبحانه المحبة بينهم وتأليف القلوب، وأنه هو من رزقهم هذه المحبة فهل يبقى لدى مسلم شك في هذه الألفة؟

❖❖❖